مشكلة العصر

وواجب كل فرد ازاءها

لسلامة موسى

نحن نعيش في عالم فاسد . ونعني بالفساد هنا ان هذا العالم يستمسك بقواعد ومبادىء بالية لا تصلح للعصر . وينتج عن هذا أننا في وسط الثروة الخالقة التي يكتظ بها العالم نعيش فقراء ومرضى وجهلاء

واعظم ما يدل على هذا الفساد هذا الفقر الذي يعم العالم فان اكثر من ٩٥ ٪ من سكان العالم يعيشون وهم محرومون ما يليق من الملبس أو المسكن أو المطعم ، مع ان وسائل الانتاج الحاضرة الزراعية والصناعية تكفي وتفيض . أي تكفي لان تملك كل عائلة في العالم بيتاً مستقلاً متمدناً لا يقل ثمنهُ عن الف جنيه ويحوي جميع وسائل الرفاهية من الاثاث . بل يمكن كل عائلة ان تملك سيارة . ونعني كل عائلة في العالم . ولا نذكر الطعام ولا نذكر اللباس لانهما يكفيان ويفيضان بلا حساب

فاذا استعملنا وسائل الانتاج والتوزيع اي الاستهلاك بالاساليب العلمية بدون التقيد بالقواعد القديمة ، واذا اخذنا بالمبادىء التي تنظر الى المستقبل بدلاً من المبادىء التقليدية ، استطعنا ان نمحو الفقر من العالم كله وان نحيل جميع سكانه اغنياء . ولسنا بالطبع نقصد بالغنى أن يملك كل امرأة فيلا أو يزين رأسه بأحجار لماعة برَّاقة مثل الالماس أو اللؤلؤ . لان هذا الغنى هو غنى الجهلاء . وهذا الخيال هو خيال العقل الضعيف . وانما نعني غنى الكفاية في الحصول على الطعام واللباس والمسكن

اننا نعيش تحيط بنا الثروة ولكننا نعالجها باقتصاديات الفقر . ففي الوقت الذي نعرف فيه أن سكان العالم جميعاً ، وهم لا يزيدون على الفي مليون انسان ، يكفيهم ثلاثة او اربعة مصانع فقط لصنع الاحذية أو عشرون أو ثلاثون مصنعاً كبيراً لصنع الملابس ، ومثل هذا العدد لاحراج السيارات أو أجهزة الراديو — بينما نعرف هذا نقف عند المعرفة ولا نستخدمها في محو الفقر والحاجة . وفي عالمنا الحاضر رجال مثل فورد يشيرون باصابعهم الى الطريق السوي للانتاج الكثير الذي يكفي هذا الكوكب الصغير ومع ذلك لا يلتفت

الى اشارتهم . فان فورد كان يخرج في اليوم الواحد نحو خمسة آلاف سيارة يتسلم موادها خاماً ويخرجها مركبات تجري ناصعة الظاهر مترفة الباطن . ويدهي ان عشرة رجال مثل فورد يمكنهم ان يزوّدوا كل مائة على هذا الكوكب بسيارة فاخرة . بل استطيع أن أقول إن فورد نفسه لو كلف هذه الخدمة لقام بها وحده

وليس فورد ممتازاً على أي انسان منا . وكل ما يمتاز به أنه يستخدم العلم في الانتاج. هذا العلم الذي يمكن أن نستخدمه ايضاً في صنع الملابس والأثاث وبناء المساكن بل في كفاية جميع الناس الطعام الوافر المغذي

ولكننا لا نفعل هذا لأن العلم لا يستعمل في الانتاج الصناعي والزراعي ولأننا نقسم الامم الى طبقات ونكاد نحس افرط جهلنا أن الفقر ضروري ومحتوم واننا يجب ان نرعاه مع ان العلم الحديث قد جعل امكان الغائه الغاء تاماً في العالم كله ممكناً في بضع سنوات

نحن نعيش في عالم فاسد يحفل بالفقر في وسط الثروة لاننا لا ننتج هذه الثروة ولا نوزعها بالأصول العلمية على الناس . ونحن نعيش في عالم فاسد أيضاً نكاد نرعى المرض ونحميه مع ان وسائل الوقاية منه وكذلك وسائل معالجته متوافرة . وأول الوسائل لمقاومته هو الغاء الفقر لان الفقر اعظم الاسباب للمرض والوقاية تحتاج الى المسكن الحسن واللبس الحسن والطعام الحسن . وهذه كلها يمنعنا الفقر من الحصول عليها . وليس من حق أمة أن تسمي نفسها متمدنة اذا كان مرض مثل التيفوس ينتقل بالقمل ، أو مرض آخر مثل الدرن يتفشى بقلة الغذاء ، أو مرض آخر مثل البلاجرا يتفشى لهذا السبب نفسه — اقول ليس من حق امة ان تسمي نفسها متمدنة اذا كانت تترك هذه الامراض تفشو فيها للفقر بينما فيها افراد يحصل أحدهم على مائة أو الف جنيه في اليوم وآخرون لا يحصل احدهم على سبعة او ثمانية جنيهات في السنة كلها

ان تفشي الفقر والمرض في أمة ما برهان على فساد في المجتمع . وكلاهما أي الفقر والمرض مرتبط احدهما بالآخر ، كل منهما ينمر الآخر . او بالاحرى نقول ان الفقر هو التربة الخصبة للمرض ثم يعود المرض فيساعد الفقر على ان يقوى ويشتد . وكلاهما يمكن محوه بالقليل جداً من مبادئ العلم العصري وترك التقاليد الآسنة في الانتاج والاستهلاك

ونحن نعيش في عالم فاسد لاننا نعيش في وفرة من المعارف العصرية ولا نستعملها في تربية أنفسنا . فنحن جهلاء باتفاق عام أو بنظام معين يرتضيه الامر الكبي لا يتعلم أبناؤها . بل ان أعظم الوسائل التربية التي اخترعت في عصرنا مثل الراديو والسينماتوغراف تستعمل الآن للتسلية العامية التي لا تزيد على مستوى العقل الأدنى في حين كان يمكن أن تكون هاتان

الوسيلتان قوة دينامية لتحريك الذهن البشري وتعبئة العواطف للرقي العام والتثقيف العصري . وليس على هذا الكوكب الآن أحدٌ يستطيع أن يقول انهُ حصل على تربية حسنة لأن الواقع اننا كلنا جهلاء . وهذا الجهل قد جعل المعارف منفصلة غير مترابطة حتى ان العالم في البيولوجيا يجهل مبادىء السياسة، والعالم في الزراعة يجهل مبادىء الاجتماع . فمعارفنا في تحليل وليست في تأليف . ومن هنا كوارثنا المتعددة وجهلنا الفاضح . فعالم الزراعة مثلاً يمكنهُ بالعلم العصري أن ينتج من الطعام ما يكفي كل فرد على هذا الكوكب أن يأكل ويشبع كما يشاء من الخبز واللحم والخضروات . ولكنه بعلمه الزراعي قد انفصل عن العلم الاجتماعي فلا يعرف أين يجب أن يذهب نتاج القطن والبن والقمح والعجول والخراف والخنازير ولذلك أحرقت هذه الاشياء في سنتي ١٩٣٠ و١٩٣١

هذا الكوكب يجوع سكانه ومع ذلك تحرق محاصيله الوفيرة التي أنتجها العلم الزراعي لان العلم الاجتماعي لا يزال ناقصاً أو ان ما يعرف عنهُ يجهله عالم الزراعة أو ان بعض الحكومات تمنع الحرية في بحث الاجتماع فلا يتقدم هذا العلم ولا يفشو بين السكان في حين هي لا تمنع بحث الزراعة فتتقدم ويكثر انتاجها ولكن مع كثرته لا تنتفع به الأمم

اننا جهلاء . نتعلم في المدرسة والجامعة ألاعيب من الفصاحة والبلاغة والشرثرة ونتزين ببهارج من تاريخ الاغريق والعرب والرومان ونقرأ جرائد تحدثنا عن زواج هذه الغنية أو الجواهر التي يملكها ثري في أميركا أو مهراجا في الهند . ونحن نغذو أذهاننا بهذا الغذاء التافه بعد تعليم زائف في المدرسة أو الجامعة فلا يبلغ أحدنا سن الاربعين أو الخمسين حتى يجد انهُ جاهل عظيم لا غش في جهله ولا علاج لهُ . وكل هذا لأن المعارف العصرية يفضل عليها تقاليد في الثقافة هي الغش والآسن واللعب والتهريج لا ينتفع بها غير الذين يتناولون أجراً لتعليمها

نحن جهلاء ومجتمعنا مضطرب مرتبك لأننا لا ندرس المعارف العصرية ولا نربطها بعضها ببعض حتى يتأثر بها المجتمع وتدخل في تفاصيل نظامه ولذلك تجد جاهلاً من وقت لآخر يطالبنا بنظام اجتماعي كان فاشياً قبل الف سنة لأن هذا المسكين يجهل اننا في القرن العشرين ننتج من غذاء الجسم وغذاء الذهن ما يكفي لأن يجعل أصغر صعلوك في عصرنا يعيش في ترف وحضارة لم يبلغهما سليمان في عظمته ولا رمسيس في عزته

ولكننا لا نستخدم الوسائل العصرية لالغاء الفقر، وكذلك لا نستخدم الوسائل العصرية لمحو الجهل . بل نحن لجهلنا أبينا نخشى المعرفة ونعتقد ان فيها أوبئة خطرة فنمنع الناس من درسها . ونبلغ الجهل بعض السامة أن يمنعوا القوميين منع دراسة بعض القيم

الاجتماعية والدينية الجديدة أو بحثها . كأن تقرير المصير للذهن البشري قد أصبح من حقهم موقوفاً عليهم

ونحن نعيش في عالم فاسد لأنه زيادة على ما فيه من فقر ومرض وجهل يوقعنا من وقت لآخر في الحرب بعد أن يهيىء لها بالاستعمار واستعباد الأمم التي لا تملك السلاح . والترابط واضح بين جميع هذه الشرور الاربعة . وكذلك الأمل واضح فيها . وهو اننا لا نستخدم العلم الحديث ولا نعلم الوسائل العصرية لكي نصل الى المعارف الجديدة التي تكفل لنا طعاماً ولباساً ومسكناً ورفاهية عامة وسلاماً دائماً

هذا السلام الذي يُسهدم من وقت لآخر لأن الجهلة من الساسة يجهلون ان العلم العصري يمكنه ان يوفر لنا كل ما نحتاج اليه . ويؤدي جهلهم هذا الى ان يلجأوا الى الأساليب القديمة في إنشاء طبقة ممتازة أو أمة ممتازة وفي الاتجاه الى الاستعمار وخطف الاسواق او المواد الخام . فبدلاً من ان يتوافر لنا العلم والمعرفة والصحة والمسكن واللباس والتربية مدى الحياة يتوافر لنا الجهل والفقر والمرض والقتل بالحرب او بالجرعة . ونحن نموت بالجملة في هذه الفوضى العامة يقتلنا الالمان بطائراتهم أو يقتلنا التيفوس بالقمل

***

فما هو الواجب ازاء هذه الفوضى على كل فرد منا ؟

الواجب الأول ، الواجب الديني ، الواجب الذي تحتمه علينا الحياة الشريفة النقية هو ان نواجه هذه الدنيا بعلامة الاستفهام وبتواضع الجاهل فنسأل لكي نعرف ونتعلم مدى حياتنا . لا نتعلم البهارج والزخارف ولا نحني نقصنا بالالتجاء الى التقاليد ومجد التاريخ ، وانما ندرس لنعرف كيف نستطيع ان نمحو الفقر والمرض والجهل والحرب . والمعارف العصرية كفيلة بهذا المحو اذا تعلمناها ودرسناها بدلاً من قضاء وقتنا وحشو أدمغتنا بما نسميه ثقافة وهي في حقيقتها مجموعة من العادات الفنطية التي كانت تعيش بها مجتمعات متأخرة وكانت هذه الثقافة نفسها نتيجة لتأخر هذه المجتمعات وسبباً أيضاً لزيادة تأخرها

يجب ان يكون لنا وجدان علمي . يجب ان نحس أن هذا الكوكب كوكبنا . واننا أمة واحدة عددنا اثنان من الملايين تقاسي ضروباً من الظلم ليست لها ضرورة ما واننا نستطيع ان ننعم هذا العالم كما ننعم قرية صغيرة . فنبني مما كنه ونؤثثها ونعلم ابناءه ونقدم لهم أجل الملابس وأصح الأطعمة . ويجب ان نعرف ان الامر المحتمل الآن — في هذا اليوم — تنفق نحو مائتي مليون جنيه ، مائتي مليون جنيه في اليوم لقتل اشباه من الروس والانكليز والالمان والايطاليين واليهود والاميركيين واليابانيين . وما ينفق الآن على الحرب يمكن ان

ننفق أكثر منهُ مدة السلم لكي يعيش الناس في مساواة يستوون في الحصول على منع الحضارة

فاذا وصلنا الى هذا الوجدان واذا شرعنا نتعلم ونعرف فاننا نستطيع عندئذ ان نشرع في الكفاح . فنؤمن بالعالم قبل ان نؤمن بالوطن . ونجعل هذا الايمان ديناً بشريا جديداً يبعثنا على احترام هذه الدنيا وصيانتها بما فيها من كنوز وحيوانات وناس . فلا يجوز لأمة ان تستغل مناجمها حتى تنضب . ولا يجوز لفرد او طائفة ان تبيد حيواناً من غابات العالم لأن هذه الغابات هي حديقتنا وهذه الحيوانات هي تراثنا من الطبيعة . ولا يجوز لأحد ان يستبدَّ بشعب ويحرمهُ المعرفة أو الثروة او الصحة أو الطمأنينة لأننا كلنا أمة واحدة عددنا الفان من الملايين . والحضارة القائمة هي تراث ورثناه بعد كفاح لا يقل عن نصف مليون سنة فلا يجوز لفرد أو طبقة ان تستأثر دون غيرها بمنع هذه الحضارة او مزاياها

يجب ان نكافح الرق بكل أنواعه . رق الاستعمار ورق المرأة ورق العامل لا لأننا بشر سواء فقط بل لأن المجتمع الذكي يستغني الآن عن الرق باستخدام الحديد والنار والكهرباء . وقد وجد في استخدام هذه كلها خيراً عظيماً زيادة على ما كانت تجده من الخير أو من الشر تلك المجتمعات القديمة التي كانت تجيز رق الانسان -

ان متوسط ما يملكه الرجل او المرأة او الطفل في الولايات المتحدة الاميركية هو أربعون حصاناً من الطاقة المحركة . أي ان هذا المجتمع الاميركي قد صار يستخدم من آلات الحديد والنار والكهرباء في البيت والمصنع والمزرعة والمتجر وفي التنقل بالبحر والجو والياسة ما متوسطه أربعون حصاناً لكل فرد . أو بكلمة أخرى صار كل طفل وامرأة ورجل في الولايات المتحدة يملك نحو ثمانين عبداً يعمل في خدمته دون ان يتألم

فلنكن لنا دعوة الى التحرير . تحرير الناس من رق العمل الذي يسير على التقاليد القديمة . هذا التحرير الجديد الذي يسَّره لنا العلم والذي سوف نرى منه أكثر مما نرى الآن اذا تخلصنا من قيود التقاليد الآسنة

معرفة ثم كفاح . معرفة تتألف بها الثقافة حتى تنتهي كلها الى غاية اجتماعية . فلا تتعلم الزراعة للانتاج الكثير فقط بل لتوفير ما ينتج للناس . ونعني للناس أي ليس للتجارة ولا للثراء . فاذا زادت المحصولات فللخير العميم وليس للاحراق كما حدث سنتي ١٩٣٠ و١٩٣١ حين أحرق القمح والبن وأتلف القطن وقتلت العجول والخنازير . لا لأن الشعوب لا تحتاج اليها بل لأنها لم تجد الثمن الذي يعود على أصحابها بالربح

هذا الجهاد ينشأ عن وجدان عالمي يجعلنا نحس أننا أبناء هذه الدنيا التي لن يكون فيها فقر أو مرض أو حرب أو جهل

مشكلة العصر هي هذه : اننا نعيش في عالم حافل بالمعارف العصرية بالعلوم الجديدة التي تستطيع ان توفر لنا الصحة والثروة والسلم . توفره لكل بيت . لكل فرد . واننا بهذه المعارف الجديدة يستطيع كل منا ان يستخدم قوة كهربائية أو بخارية تساوي ثمانين عبداً

ولكننا محرومون استخدام هؤلاء العبيد الجدد . محرومون لانه يسوس العالم ساسة لم يتعلم معظمهم العلوم الجديدة فلم يعرفوا الوسائل الجديدة الانتاج ولم يفكروا في وسائل جديدة للتوزيع . فعقلية هتلر أو غيره من الساسة هي عقلية نبوخذنصر أو رمسيس الثاني او نابليون ، عقلية الاستحواذ على الثروة باخضاع الامم الاجنبية . مع ان العلوم العصرية والمعارف الجديدة قد أوجدت وسائل اخرى لانتاج الثروة تفوق الف مرة اخضاع الامم الاجنبية كما أوجدت الآلات لخدمة الاميركي بدلاً من العبيد

***

والآن ما حاجتنا نحن المصريين — على الاخص — في عالم فاسد كهذا ؟ واجبنا ان نستنير ونتعلم ونفهم محور المشكلة وبؤرة الفساد في العالم وفي مصر . فاذا فهمنا استطعنا أن نقيس جهلنا ومرضنا وفقرنا بمقاييس عالمية واستطعنا ان ننقل مشكلاتنا الى التيار العالمي نتكلم بلغة المتمدنين ونفكر بتفكير المتمدنين . فلا نسفسف ونقول اننا امة شرقية لنا تقاليد خاصة ونكتفي بذلك كأننا نعيش في كوكب آخر غير الارض . لان العالم الآن لا ينقسم الى شرق وغرب . وانما هو ينقسم الى امم دستورية واخرى اتوقراطية ؛ وامم دموقراطية واخرى فاشية ، وامم بلوتوقراطية وأخرى اشتراكية ؛ وامم زراعية تقليدية واخرى صناعية تنظر الى المستقبل . وهذا تقسيم يفهمه كل متمدن مثقف . وهو تقسيم الذهن والمعرفة . اما قسمة العالم الى شرق وغرب فتقسيم الجهل والعاطفة . الاول يضير والثاني يظلم

بؤرة الفساد ومحور المشكلة في العالم كله ان الدنيا تنتقل في عصرنا من عمل اليد الى عمل الآلات الكبيرة . فالاسس التي كانت تبنى عليها المجتمعات القديمة قد تزعزعت . وصار العالم في حاجة الى بناء جديد . وواجبنا نحن في مصر ان نساعد على اقامة هذا البناء

يغير العالم من اقتصاديات الزراعة والعمل اليدوي ، اقتصاديات المالك الصغير والعاقلة العامة وعدالة التوزيع ، الى اقتصاديات الصناعة الآلية أي عمل الآلات . اقتصاديات المالك الكبير والانتاج الكبير والثروة الوفيرة ووجدان الشعوب التي تحس بزهده الثروة يجب ألاّ تترك في

أيدي طائفة تحد من انتفاع الشعوب بها باحراق المحصولات أو اقفال المصانع . ويجب علينا نحن المصريين أن نساعد على هذا التغير

تغير العالم من النظر التقليدي للعاش والرضى بأساليب الانتاج الصغير بأدوات يدوية من الخشب، الى النظر الى المستقبل واستخدام العلم في الانتاج الكبير. أي انتاج ؟ الانتاج الذي نعرف منه ان مصنعاً واحداً — أجل واحداً — يكفي العالم كله من بعض الحاجات كالأحذية أو الزجاجات أو العقاقير المختلفة

ومثل هذا الصنع يجب ألاّ يملكه انسان . بل ولا شركة . بل ولا أمة . وانما يملكه العالم كله . لأنه هو ثمرة مكتشفات ومخترعات قد احتاج البشر الى نحو نصف مليون سنة لاتمامها منذ ابتداء الاكتشاف للنار الى الاهتداء الى القراءة والكتابة الى معرفة المعادن الى دراسة العلوم والفنون المختلفة . والبشر سواء في هذا التراث الثقافي ليس لأمة فضل على أخرى

فواجبنا في مصر أن نساعد على هذا الانقلاب العالمي

١ — نساعد على انتقال العالم الى الصناعات الآلية حتى ننتقل الى اقتصاديات الوفرة ونترك اقتصاديات القلة

٢ — ونساعد على تأصيل الاخلاق الجديدة التي تنشأ عن هذا الوجدان : أخلاق الوفرة في المعيشة بحيث يتوافر لكل عائلة بيت وطعام ولباس وتربية وفراغ وصحة وطمأنينة . وكل هذا وأكثر منهُ سهل ممكن في عصرنا

٣ — ويجب ان نساعد على هذا الانقلاب بالنظر الى المستقبل ورسم الخارطة للدنيا الجديدة وأن نترك النظر التقليدي

٤ — ويجب أن يأخذ الرأي والعلم والمناقشة الحرة للاذهان الحرة مكان العقيدة والتقاليد وتقييد التفكير

٥ — ويجب ان ننتقل من حسابات القرية ومهاترات القرية في السياسة المصرية الى سياسة عالمية تشعرنا بالتضامن البشري وتحملنا على التيارات الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية التي تؤثر في العالم وتغيره

***

وفي مصر يجب علينا أن نقتل الاسطورة القائلة بأننا أمة زراعية واننا لن ننجح في الصناعة . ويجب ألاّ نصدقها لانها أسطورة كاذبة . واذا قيل لنا انه ليس عندنا حديد أو فحم فيجب أن نرد بأن عندنا البترول وساقط المياه . ويجب أن نقول انه كما نصدر نحن القطن

يمكننا أيضاً أن نستورد القمح . ويجب أن نقول ان ايطاليا وسويسرا ليس في احداهما فحم أو بترول أو قطن أو حديد ومع ذلك صارت كل منهما أمة صناعية أي أمة عصرية أي أمة تعيش باقتصاديات الوفرة . ففي سويسرا ينال الكنّاس في الشارع (٩ر١٩) تسعة عشر جنيهاً ونصف جنيه في الشهر ، ذلك لأنها أمة غنية بصناعاتها . ولو اقتصرت على الزراعة لكانت فقيرة مثلنا . ونحن نمتاز على سويسرا بمادتين من المواد الخام هما القطن والبترول . وكلانا سواء في السياحة ومساقط المياه أو يجب ان نكون سواء

في سنة ١٩٠٤ سن قانون في مصر للصناعات المضرة . فلم يسمّ المصنع مصنعاً بل سمي « محل مقلق بالراحة أو مضرّ بالصحة أو خطر » وهذا القانون لا يزال قائماً منفذاً . وهو يعرقل صناعاتنا ويهدم مصانعنا

والعجب لن لفظة مصنع لم تذكر الى الآن في القوانين المصرية . ولكي ندرك المعنى والمغزى من هذا القانون يجب ان نسأل ماذا يكون شعور الطبيب والمريض لو اننا وصفنا المستشفى في قانون جديد بأنه « محل لتقطيع أجسام الناس من رجال ونساء وأطفال أو للموت » ؟

انه ليس شك في ان أجسام المرضى تقطع في المستشفيات وكذلك يحدث فيها الموت . ولكن الى جنب هذا نجد آلافاً ممن يشفون ويهنأون بالسعادة والصحة

وكذلك الحال في المصنع فهو أحياناً يقلق الراحة او يضر بالصحة أو يكون خطراً ولكنه يخرج لنا مصنوعات رخيصة ويستخدم الوف العمال وينقلنا من حضارة الزراعة التقليدية الى حضارة الصناعة ، حضارة المستقبل . ويغير تفكيرنا من العقيدة الجامدة الى العلم الحر ويحملنا على تيار عالمي جديد نحو اقتصاديات الوفرة والشبع والمعرفة والصحة بدلاً من اقتصاديات القلة والجوع والمرض والجهل

فيجب ان يلغى هذا القانون لأن عاقبة بقائه هي عرقلة تطورنا الاجتماعي وابقاؤنا في أسر تفكيرات قديمة بالية

ولن يمكن ان نصير امة عصرية الا بالصناعة على الرغم مما قد يكون فيها من اقلاق بالراحة وضرر بالصحة وخطورة . وكل هذا لن يصل الى جزء من مائة او الف مما في الزراعة من بلاغرة وبلهارسيا وانكلستوما ودرن وجوع وذل وقل

واذا دخلت بلادنا في الطور الصناعي شلت اذهاننا تفكيرات العلم واخذنا بالنظر الى الامام واستطعنا أن نسير مع قافلة المدن